رواد القصة وظواهر المجتمع المصري

بقلم الدكتور عبد الحميد ابراهيم

تمهيد

(١)

لمصر موقع استراتيجي هام جعلها حلقة اتصال بين ثلاث قارات، ومقصدا لكثير من المغامرين الطامعين في خصوبة وادي النيل وخيراته ، وفي الحكم من ناحية تجارية وعسكرية . فازدحمت واصطرعت على صدرها جنسيات مختلفة . الانجليز والفرنسيون يتنافسون بجيوشهم وسياسييهم ، فيحاول كل فريق ان ينشر ثقافته وحضارته وأن يستولي على اكبر نصيب من اسهم قناة السويس ، والاتراك والشراكسة والمماليك يمارسون صنوف العنجهيه ويطلقون لرغباتهم وشهواتهم العنان . وكل هذا في غفلة من الفلاح المصري الأصيل الذي فرضت عليه ظروفه التاريخية القاسية الكثير من التبلد والسذاجة ، فلم يتنبه ولم يقاوم تلك المؤامرات الاستغلالية التي كانت تحاك حوله وتعمل على تجريده من ارضه وامتصاص موارده البشرية والاقتصادية .

فالمغامرون الاجانب كثر تدفقهم ، واستخدموا كل اساليب الذكاء والمكر من اجل الاستيلاء على الموارد الاقتصادية ووجدوا فرصتهم في اضطرار اسماعيل للاستدانة والرهن «في سنة ١٨٧٧ رهن ١٣١،٤٨٥ فدانا لاحد بيوتات المال الاوروبية، ثم رهن في السنة التالية ٤٢٥،٧٢٩ فدانا لبيت روتشيلد» (١) . وشرعوا من القوانين ما يحمي عمليه الاستغلال ويضفي عليها صفة الشرعية ، فأنشأوا سنة ١٨٧٦ المحاكم المختلطة التي نشطت عن طريق الرهن والفوائد والاجراءات المعقدة في تجريد المصري من ارضه وضمها للاجنبي «ولقد بلغت مساحة الاراضي التي باعتها المحاكم المختلطة في سنة ١٨٨٣ جبرا عن اصحابها ٢٢٠،٤٧ ، وفي سنة ١٨٤٤ بلغت مساحتها ١٨،١٤٨ ، وفي سنة ١٨٨٥ بلغت ١٧،٨٢٨ ، وفي سنة ١٨٨٦ باعت المحاكم المختلطة ١٢،٩٦٩ ، وهكذا بلغت ملكية الاجانب في سنة ١٨٧٨ ما مساحته ٢٢٥،١٨١ ، وبعد عشر سنوات اصبحت ٥٥٠،٠٠٠ اي بنسبة ١١ – ١٢ بالمئة من جميع اراضي البلاد بعد استبعاد ارض الحكومة» (٢) .

اما الاتراك فهم العنصر الحاكم ، فكان من الطبيعي أن يقرب الحاكم اهله ويغدق عليهم المنح والامتيازات «وكان كل امير يأتي للحكم يحابي فرع العائلة الذي ينتمي اليه وهكذا تكونت الدائرة السنية ، وكان مجموع مساحة اراضيها ٥٠٣،٩٩٩ فدانا في سنة ١٨٨٠ ... وفي سنة ١٨٨٤ بلغت مساحة اراضي الابعديات والعهد والجفالك في الوجه البحري ١،٤٦٤،٥٥٩ فدانا مقابل ٦٧٤،١١٤ فدانا للفلاحين » (٣) .

وبجانب هذه الفئات المستغلة نشأت طبقة من المصريين تطلعت الى المناصب العليا والامتيازات التي تتمتع بها الطبقات العليا من الاتراك والاجانب ، فعملت على التقرب الى السلطان ومؤازرته في تنفيذ مخططاته ، فكافأها بمنح الاقطاع والابعديات . ومحمد علي هو واضع اساس هذه الطبقة ، فمنح ٥ بالمئة من مساحة القرى في مصر الى مشايخ البلاد (العمد) وعرفت هذه الارض باسم مسموح المشايخ او مسموح المصطبة ، وتوالت «فرمانات» بالابعديات والجفالك وكذلك فعل خلفاؤه من بعده ، وفي محفوظات عابدين سجل طريف عنوانه «الاراضي التي صار ايهابها واحسانها بأمر فخامتلو الخديو اسماعيل باشا» ووردت فيه قائمة بمئات الاسماء من العائلة المالكة واتباعها ومحسوبيها ، وبلغت مجموعة هذه الهبات ٨٧٦،٨٦٣ فدانا (٤) .

ونظمت عملية جشعة ومخططة لتجريد الفلاح من ارضه، فالاجانب عن طريق الربا والرهونات والامتيازات جعلوا يستولون على الارض، وتوسعت المحاكم المختلطة في نظرية الصالح المختلط حماية للمصالح الاجنبية ، وصدر تشريع القانون المدني المختلط «المجموعة المدنية المختلطة سنة ١٨٧٦» فاعترف لصالح الاجانب بالملكية وأنها الحق التام للمالك في الانتفاع والتصرف المطلق فيما يملك .

وشرع الخديو ومعه اكابر الدولة يستخدمون شتى الطرق والتشريعات للاستيلاء على الارض فأصدر سعيد سنة ١٨٥٠ امرا بتنظيم ترك الارض ، وفي سنة ١٨٥٨ اصدر امرا جديدا ببيع الاراضي الخراجية التي تركها الاهالي ، ووزع جزءا منه على افراد العائلة الخديوية وبعض اكابر البلاد وبعض موظفي الحكومة ، وكانت الضريبة على ارض الفلاح (الارض الخراجية) اكبر من الضريبة على ارض كبار الملاك (الارض العشورية) ففي سنة ١٨٧٧ بلغ مجموع الخراج تسعة أمثال العشور ، على الرغم من ان مساحة الاراضي الخراجية كانت حوالي ضعف الارض العشورية (٥) .

---

(١) مجلة «الطليعة» القاهرية (يناير سنة ١٩٦٥) ص ٢٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٨

(٣) المرجع السابق .

(٤) «قصة الارض في مصر» تأليف محمد صبيح ص ٥٧ (القاهرة – المكتبة الثقافية – ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٠) .

(٥) انظر مجلة «الطليعة» القاهرية (يناير سنة ١٩٦٥) ص ٣٢

والنتيجة الحتمية لكل هذا هو حدوث اختلال في البناء الطبقي، تورم من جانب يقابله هزال من الجانب الاخر ، قمة ضئيلة من الاجانب والحكام والباشوات تمتلك معظم ثروات البلاد وتقعد فوق قاعـــدة عريضة لا تمتلك الا النزر اليسير .

ومن الجدول رقم (1) يتبين ان طبقة كبار الملاّك (٥٠ فدانـــا فأكثر) كانوا يمتلكون قبل قوانين الاصلاح الزراعي نسبة ٣ ٤/٢ بالمئة من المساحة المزروعة بينما كانت نسبة عددهم ٠،٤ بالمئة من مجمـوع الملاك ، وطبقة متوسطي الملاك (من ٥ الى ٥٠ فدانا) كانت تملك ٣٠،٤ بالمئة بينما يبلغ عددهم ٥،٣ بالمئة ، وطبقة صغار الملاك (اقل من خمسة افدنة) كانت تملك ٣٥،٤ بالمئة بينما يصل عددهم الى ٦٤،٣ بالمئة .

ومن الجدول نفسه يتضح ان مجموع عدد الملاك ـ على اختـلاف المستويات ـ يبلغ ٢،٨٠١،٠٠٠ وهي نسبة ضئيلة للغاية اذا قورنت بعدد السكان الذي وصل الى ١٨،٩٦٦،٧٦٧ على حسب احصائيـــة سنة ١٩٤٧ (١) . وبهذا نستطيع ان نتصور ذلك الوضع الذي تعيش فيه غالبية الشعب ، بل ان هناك فئة من المعدمين تماما ، هم فئـة «عمال التراحيل» ، الذين يقول عنهم الميثاق «انهم عاشوا ظروفـــا اقرب ما تكون الى السخرة تحت مستوى من الاجور يهبط كثيرا ليقرب من حد الجوع ، كما ان عملهم كان يجري من غير اي ضمان للمستقبل ولم يكن في طاقتهم ان يعيشوا سني حياتهم خلال بؤس الساعـــات وقسوتها الرهيبة » .

جدول رقم ١ (شكل ملكية الارض في سنة ١٩٥٢)

حجم الملكيات	عدد الملاك بالالف	المساحة بالالف	النسبة المئوية لعدد الملاك	النسبة المئوية للمساحات
اقل من خمسة افدنة	٢٦٤٢	٢١٢٢	٩٤،٣	٣٥،٤
من ٥ الى ١٠	٧٩	٥٢٦	٢،٨	٨،٨
من ١٠ الى ٢٠	٤٧	٦٣٨	١،٧	١٠،٧
من ٢٠ الى ٥٠	٢٢	٦٥٤	٠،٨	١٠،٩
من ٥٠ الى ١٠٠	٦	٤٣٠	٠،٢	٧،٢
من ١٠٠ الى ٢٠٠	٣	٤٣٧	٠،١٢	٧،٣
اكثر من ٢٠٠	٢	١١٣٧	٠،٠٨	١٩،٧
المجموع	٢٨٠١	٥٩٨٤	١٠٠	١٠٠

وكان هناك فريق من علماء الدين يباركون هذا الوضع، ويخرعون من الاحاديث والفتاوى ما يرضي السادة الكبار ويتيح لهم اكبر قدر من الاستغلال ، ويجعل الفئة المغلوبة تعيش في تخدير ووهم، تكرهونهم في الدنيا ، ويحببون اليهم حياة الفقر ويعزونهم بالصبر والقناعة ، ويطمعونهم في جنات اكثر عرضا من تلك الاراضي الشاسعة التـــي حرموا منها .

وكذلك كان يساعد الحكام والملاك طبقة من الموظفين والاداريين، لهم من الحرية ما يشاءون في استعمال اساليب التعذيب والقهر وفي قتل روح المقاومة في نفوس الفلاحين وجباية اكبر مقدار من المال . ويعطينا مؤلف كتاب «هز القحوف» نموذجا لهذه التصرفات وهو يعلق على قول «ابي شادوف» اي الفلاح :

وبوم يجي الديوان تبطل مفاصلي وأهر على روحي من التخويف

ـ يعلق فيعطينا صورة واضحة عن الاضطهاد الذي يلاقيه الفلاح ابو شادوف «ان النصراني اذا حضر للقرية وفرض المال على الفلاحين وشرع في اخذه ، فيكثر الخوف والضرب والحبس ان لا يقدر على غلاق المال ، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة او يأخذ علـــى زرعه الى أوان طلوعه بنافص عن بيعه في ذلك الزمان، او يبيع بهيمته التي تحلب على عياله ، او يأخذ مصاغ زوجته يرهنه او يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها ، ويدفع الثمن للنصراني او لمن هو متولـــي قبض المال ، وان لم يجد شيئا ولا يرى من يعطيه وخشى الشـــد او الملتزم من هرابه (كذا !) من البلد احضر ولده رهينة عنه حتى يغلـق المال ، او يأخذ اخاه ان لم يكن له ولد او احدا من اقاربه ، ويوضع في الحبس للضرب والعقوبة حتى تنفذ فيه احكام الله تعالى (!) ومنهم من يهرب بنفسه تحت ليله ويترك اهله ووطنه من هم المال وضيـــق المعيشـــة » (٢) .

ولا نزال نعلق في اذهاننا صورة «العمدة» كنموذج مصغر للمستبد في القرية ، اذ كان وكيل الحكومة وعينها على الفلاح وصاحب الكلمة النهائية في ربط الضريبة على الارض وبيان اي الاراضي لم تكن تنتج فعفى من الضريبة ، وأي الاراضي تنزع للمنفعة ، ولمن تؤول الارض بعد وفاة المنتفع بها ، وكان يهيمن على الاجراءات التي تتم علـــى الفلاحين بسبب تقصيرهم في دفع الضريبة ، وهو المسؤول عن تقديم العدد الكافي للسخرة وترحيل أنفار القرعة .

وهكذا يتحلل المجتمع في النهاية الى طبقتين متفاوتتين تمـــام التفاوت ، طبقة اقطاعية (لاندوقراطية) تستعين بفئة من علماء الدين (ثيوقراطية) لكي تخدر الشعب وبمجموعة من الاداريين (بيروقراطية) لتكون اليد التي تشرف على تنفيذ مخططاتها . تقابلها الطبقة المستغلة والمحرومة من فائض القيمة ، بينما تنفصل الطبقة الوسطى عن جماهير الشعب وتعيش لانانيتها وانتهازيتها ، تحاول التمرغ في «تراب الميري» والتمسح بأعتاب الطبقة العليا .

وفي الوقت نفسه تعرضت الطبقة المتوسطة لضغوط اجتماعية قاسية وظروف نفسية لا تسمح لها بالنمو والتكاثر ، فالاشخاص الذين كان يتاح لهم قدر من الثقافة او المال يتقلصون ويتحولون الـــى الطبقة الفقيرة بعد ان يتعرضوا لضغوط الاقطاع ومحاولته الاستيلاء على ما يملكون وعرقلة نشاطهم . ومن الجدول رقم ٢ نرى ان الاتجاه العام لهذه الطبقة هو الهبوط خلال الفترة ١٩١٤ ـ ١٩٥٢ سواء مـن حيث نسبتهم العددية او معدل ملكية كل فرد .

وأمر اخر كان يصيب هذه الطبقة بالإنكماش وبضعف من فاعليتها ولا يبرز دورها في الصراع الاجتماعي ، هذا الامر هو عمدة الطبقية ومحاولة الانتساب للطبقة العليا والتشبه بها ويضحون من اجل ذلك بضحيات غالية ، قد تكون في التنكر للأهل او الوطن او رفض العادات والتقاليد ، في محاولة للتخلص من طبقتهم والانضمام الى طبقـــة «الذوات» عن طريق تقليدهم في الزي والمظهر واللغة واستعمـــال الكلمات العصرية (الفرنسية بنوع خاص) وفي الزواج من الاجنبيات او من بنات «الذوات» او من التركيات ، وقد انتشرت في هذه الطبقة اخلاقيات قوامها : التزلف لجانب والتنكر للجانب الاخر ، وهذا يعني التناقض وانشطار النفس الواحدة .

جدول رقم ٢ (تطور الملكيات من ٥ الى ٥٠ فدانا)

حجم الملكيات	عدد الملاك بالالف ١٩١٤	عدد الملاك بالالف ١٩٥٢	النسبة المئوية لعددهم ١٩١٤	النسبة المئوية لعددهم ١٩٥٢	معدل ملكية كل فرد ١٩١٤	معدل ملكية كل فرد ١٩٥٢	النسبة المئوية للمساحة ١٩١٤	النسبة المئوية للمساحة ١٩٥٢
من ٥ الى ١٠	٧٦،٥	٧٩	٤،٩	٢،٨	٧	٦،٦	٩،٧	٨،٨
من ١٠ الى ٢٠	٣٧،٥	٤٧	٢،٤	١،٧	١٣،٢	١٣،٥	٩،٣	١٠،٧
من ٢٠ الى ٥٠	١٨،٧	٢٢	١،٢	٠،٨	٣٢	٢٩،٨	١١	١٠،٩

وكان لهذا الوضع الطبقي اثره في تشكيل وجدان المصري وفـي تثبيت اخلاقيات وسلوك خاص ، فنجد عند الطبقة العليا صلفا وغرورا

(١) انظر «مشكلة السكان في مصر» تأليف محمد خزيك ص ٢٧ (القاهرة ـ الدار القومية سنة ١٩٦٦) .

(٢) «هز القحوف في شرح قصيدة ابي شادوف» للشيخ الشربيني ١٢١/٢ (القاهرة ـ المطبعة الاميرية سنة ١٣٠٨) .

وحمقا وأنانية وجريا وراء الملاذ . يقابل هذا استكانة من الطبقات الفقيرة ورضا بالمكتوب وخوف من السلطة وسوء ظن بالحكومة وبكل مشروع جديد ولجوء الى السخرية والنورية «والقفشة» السريعة الدالة وولع بالموال الحزين وبالناي الشجي وبالاغنية الشاكية «يا ليل يا عين» ، وترديد لامثلة سلبية اتكالية ، ولادب شعبي فيه الخوف من الحاكم واللامبالاة امام الاحداث وهروب من حياته الواقعية الى حياة وهمية يجلبها «الحشيش» او الى حياة الدراويش والمجاذيب التي لا تفيق فيها من الاذكار . يقول الدكتور جمال حمدان : « ولهذا فان الصفات والمزايا الاخلاقية التي يجدر بالبيئة الفيضية ان تعلمها ـ وعلمتها بالفعل حينا ـ لم تلبث ان انحرفت تحت البطش والطغيان الاقطاعي وفي ظل انتحابه الاجتماعي المعوج الى نقائصها ، فالنظام والقانون اصبحا جبنا واستكانة ووشاية او سلبية ، وروح القانون التي تربط السكان اصلا ضد العنصر تحولت الى المحسوبية والمحاباة كما انقلبت الى الاخذ بالثأر ، اما المزاج الانطلاقي الذي غذته بيئة القرية النووية فتدهور الى تزلف ورياء وسعي لدى السلطان وكذلك الى روح السخرية المريرة المشهورة » (١) .

ولا نجد اصدق من الادب الشعبي في رسم ذلك الوجدان المذعور وتصوير ذلك الوضع المقلوب ان الكل يتآمر على الفلاح ولا يجد من يتعاطف معه ويتفهم ظروفه ، انه حين يأتي الى المدينة يكون مثار السخرية والتندر والاستغلال من كل من يقابله من العواهر وصاحب الحمام والجندي ، ويجعله ذكر السلطان يعيش في رعب وهلع ، فحين التقى ابو نواس «بقحف من فحوف الريف» على حد تعبير صاحب «هز القحوف» وعرض عليه ان يحمله الى الخليفة صرخ الفلاح «يا جندي السلطان يقطع روس الفلاحين ولا يخلي فلاح من غير قطع راس » (٢) .

وجاءت امثلتهم تسخر من هؤلاء السادة الظالمين ، من الحاكم وعملائه من التنفيذ ، من القاضي وجامع الضرائب والجندي «اخر خدمة الفرسكتر» «قالوا للقاضي يا سيدنا الشيخ الحيطة شخ عليها كلب قال تنهدم سبع وتنبني سبع ، فالوادي اللي بيننا وبينك قال أفل الماء يطهرها» «ابن الحرام يطلع يا قواص يا مكاس» «ان كان دراعك عسكري اقطعه» ... الخ .

وتوالت مواويلهم تلعن هذه الدنيا المقلوبة التي جعلت « ابن البلد» الأصيل نهبا للدخلاء والمغامرين ، وترجو من الله تصحيح الاوضاع واعادة المياه الى مجاريها !

حكمت ع السبع راح للكلب حد الكوم
لما صحي الكلب جال لو السبع صح النوم
انا اسألك يا رب ما مجرى بحر الهوم
ترجع السبع يخطر زي عاداته
وترجع الكلب ينبش في تراب الكوم (٣)

ان القصة وقفت لتقاوم هذا الوضع المقلوب . فالعناصر الطافية فوق السطح والتي توجه مصير البلد وتسخر مواردها الاقتصادية والبشرية في تثبيت مصالحها ، جعلت القصة توجه اليها الوخزات والتشكيك في حقوقها المقدسة ، وأخذت تسخر ـ احيانا في صورة كاريكاتورية ـ من العناصر الدخيلة وتوجه اللوم الى الطبقات المتورمة ، وكل ذلك في محاولة للكشف عن الشخصية المصرية واثبات ذاتها .

(١) «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان ص ٨٧ (القاهرة ـ كتاب الهلال ـ العدد ١٩٦ .

(٢) هز القحوف ١٤/١

(٣) «الادب الشعبي» تأليف رشدي صالح ص ٦٦ (القاهرة ـ مكتبة النهضة سنة ١٩٥٥) .

وقد تكون هذه المحاولة قد قصرت عن بلوغ الصورة المثالية التي نطلع فيها على شخصية مصرية متكاملة ، تحمل ثقل التاريخ والرواسب الشعبية والابعاد الاجتماعية والسياسية ، فاكتفت بظواهر الاشياء وببعض المشكلات ، دون التفطن الى اصول الاشياء وجذور المشكلات . ولكنها خطوة في الطريق الصحيح ، الطريق الذي يصحح الاوضاع ويزيل التناقض ويثبت الشخصية المصرية في جذورها القومية وأزماتها العصرية العالمية .

اننا سنتناول بالتفصيل موقف رواد القصة من التركيب الاجتماعي اولا ، ثم من الشخصية المصرية حصيلة هذا التركيب ثانيا ، وذلك بعد ان قدمنا صورة مجملة للواقع التاريخي الذي عاشه هؤلاء الرواد .

١ ـ القصة والتركيب الاجتماعي

نعترف بان قصة الرواد لم تستطع ان تمتص الشعب بكل ما فيه من تناقضات ، فتقدم لنا صورة كاملة لحياته ولصراع الطبقات ، ولكل ما يصحب فترة التحول وعصر النهضة من قلقلة واضطراب ، على الرغم من الدعوة الملحة الى خلق ادب يكشف عن الروح المصري كما هو (٤) ، وانشاء فن مصري «يكون قائما بذاته ومستقلا عما يقابله او يشاكله عند الامم الاخرى» (٥) .

فلم نقع في تلك الفترة على قصة من تلك القصص المركبة التي تتزاحم فيها الشخصيات وتتصارع في علاقات حية وتنمو من خلال مواقف طبيعية وتسيرها ارضية فلسفية ، ونحس فيها اننا امام حياة هذا الشعب ومع واقعه المضطرب المتناقض ، وقد استطاع الفن ان يتبطن وراء هذا الواقع الصور الانسانية الخالدة ، في هيئة تقاتل الغرائز وتصارع الرغبات . يقول ابراهيم المصري «ان قصة شعب تتجاذبه اهواء القديم والحديث ، قصة شعب يتلمس اسباب حياته الرحبة الطليقة ، قصة شعب نضطرم بين جوانحه الرغبة في تسلق جبل الحضارة وحمل مسؤوليات الحرية ، لهي قصة لم يقرأ في تاريخ الادب اروع منها ، وهي التي متى كتبناها فتحنا في ادبنا المصري الفتح الجديد » (٦) .

فلم ينجح يحيى حقي ولا المازني ولا ابراهيم المصري ولا اعضاء المدرسة الحديثة (اصحاب صحيفة الفجر) ولا غيرهم في خلق هذه القصة المركبة ، او كما يعترف يحيى حقي «كنا نحس اننا لا نحرث الا قشرة السطح وأن العمق والمستقبل يخفيان الكثير من الكنوز والالفام. وكنا نحس كذلك ان الفن لا يثير في قلوبنا الا استجابة عاجلة مندفعة كأنها هبة نافورة البترول عند اول اكتشاف البئر، كما كنا نحس ايضا ان كثيرا من هذا الفيض سيتبدد هباء وان العمل الصحيح يحتاج الى جهد كبير للضغط والتركيز والصبر والتأمل» (٧) .

ونعترف ايضا بان قصص هذه الفترة لم تعدم صورا متكاملا للصراع الطبقي ولا لتركيب الشعب من خليط متنافر يثير الحيرة والاضطراب «الاب مثلا فلاح معمم من صميم الريف والأم سيدة منحدرة من اصل تركي وأبناء الاسرة في مدارس على النظام الانجليزي ، وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي ، كل هذا بين روح القرن الثالث ومظاهر القرن العشرين» (٨) . ولم تتنبه القصة للحلول الثورية

(٤) «خطوات في النقد» تأليف يحيى حقي ص ٦ (القاهرة ـ مطبعة المدني ـ د.ت) .

(٥) «ابراهيم الكاتب» تأليف المازني ص ١٣ «المقدمة» (القاهرة ـ مطبعة دار الترقي سنة ١٩٣١) .

(٦) «الادب الحي» تأليف ابراهيم المصري ص ٦٤ (القاهرة ـ دار العصور سنة ١٩٣٠) .

(٧) خطوات في النقد ص ١٩٦

(٨) «فلسفة الثورة» للرئيس جمال عبد الناصر ص ٤٧

ـ التتمة على الصفحة ـ ٧٦ ـ

رواد القصة وظواهر المجتمع العصري

تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٦ ـ

الجذرية التي تقوم على تغيير في البناء الاجتماعي واعادة توزيع الثروة على اساس من العدالة الاجتماعية ، على الرغم من ان كثير من الرواد قد قرأوا لجوجول وبوشكين ودستويفسكي وارتزباتشيف وجوركي(١).

وكان علاجهم لهذه الاوضاع الطبقية علاجا تقليديا لا يمس الجذور، يبدأ من نقطة ان الملكية حق مقدس لمالكها . فالمعتدي عليها لص يجب ان يقتل (قصة رجل رهيب) (٢) ، او على الاقل يجب ان يسجن (قصة صابحة) (٣) .

ولهذا اكتفوا بمخاطبة قلوب الاغنياء ودعوتهم الى الاحسان والرحمة بالفقراء ، والحث على التبرع والعطايا والتفضل مما اعطاهم الله ، ومن هنا نفهم سر القصص الكثير التي تبغض في البخل وتنفر من شخصيات شحيحة (ميراث الشح (٤) ـ الست تودد (٥) ـ مهزلة الموت (٦) ـ حسن آغا) (٧) .

وعن الناحية المقابلة كانوا يسكبون دموعهم من اجل الفقراء ويتوجعون لمآسيهم بطريقة رومانسية عاطفية . ان قول المنفلوطي في اهداء عبراته «الاشقياء في الدنيا كثير وليس في استطاعة بائس مثلي ان يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم ، فلا اقل من ان اسكب بين ايديهم هذه العبرات علهم يجدون في بكائي عليهم سلوى وتعزية» ـ يصدق على موقف القاص من الطبقة الفقيرة ، او الطبقة «المنحطة» كما يسميهم عيسى عبيد (٨) .

اما الطبقة المتوسطة ـ وهذه هي الناحية الثالثة ـ فقد كان نصيبها من قصص الرواد ضئيلا كنصيبها من الحياة الواقعية ، فقد سرقت منها الطبقة المترفة الاضواء واستأثرت دونها الطبقة الفقيرة بالدموع ، فظهرت على استحياء ، واكتفت القصص القليلة التي عبرت عنها ـ كقصص احمد خيري سعيد ـ بتصوير احباطها (كقصة مخدر)(٩) او تعلقها بالمظاهر (قصة ام شحاتة) (١٠) او تحديها للضغوط الاجتماعية (قصة من الكوخ الى القصر) (١١) او انكسارها امام هذه الضغوط (قصة عريس الغفلة) (١٢) .

ولكنهم ـ وهذه خطوة ـ صوروا مفاسد الطبقة الراقية وسخروا من الباشوات واولاد «الذوات» ، فقصة «بيت الكرم»(١٣) مثلا تناولت ـ بطريقة مباشرة تقريرية خالية من الموقف ـ حياة ابن الذوات الذي اضلته بطانة السوء، وقصة «واسطة تعارف» (١٤) تعرض باولاد الذوات الذين لا عمل لهم سوى الشرب والسهر، وقصة «يحفظ في البوستة»(١٥) تصور حياة ثلاثة من الشبان الارستقراطيين الفارغين ، وقصة «الجنون فنون» (١٦) عن شاب مستهتر اضاع ثلاثمائة فدان وقد بالغ في تصويره مبالغة جعلت احد القراء يعلق على هوامشها بقوله « غير طبيعي» ، وتعدد قصة «الجريمة الاخيرة» (١٧) لاحمد خيري سعيد جرائم اسماعيل بك «آمونة بنت حسنين نستقبل الشمس كل يوم بالتضرع الى الله ان يخرب بيته ولا يهنيه على عمره ، او زوج اخته التي ماتت دون ان تترك ولدا او بنتا يتهم سمعه ولا يريد ان يصدق ان وجيها كاسماعيل بك يصرح أمام المحكمة الشرعية ان اخته كانت عايشة مع زوجها في الحرام ، أو عويس آبوريه لايني يستهبط عليه غضب الله ويتمنى ان يراه كفيفا مثله يقوده عكاز في حارات القرية وعطفانها متسولا تستر الهلاهيل بعض جسمه ، ومبروك عبد العال يقص على اهل القرية وبعد ان يأخذ المواثيق والعهود عليهم ان يكتموا السر ، حكاية اغتصاب اسماعيل بك فراريطه التسعة بالحيلة والتهديد » .

وصور القصاص الاتراك والشراكسة في صورة تسخر من حمقهم وعنجهيتهم ، وتظهرهم في قلوب جامدة لا تلين للفلاحين ، وتستمسك برونين مكرور وتخضع لقوانين صارمة ، «فام محسن» في رواية «عودة الروح» سيدة فاسية تعشق المظاهر والشكليات وتحب التقليد وتحتقر زوجها لانه «فلاح جعيدي» ، ويكثر من قصص محمود تيمور التهكم من هذه النماذج وتصوير انحرافها (وقصة قدح ماء وليمونة) ، وحمقها (قصة الشيخ سيد العبيط) وبخلها (قصة حسن آغا) وجريها وراء الملاذ (قصة الحاج فيروز) وولعها بالمظاهر والشكليات والصراحة والعظمة (رواية الاطلال) .

وسخرت القصص ـ بطريقة واضحة ـ من بعض علماء الدين ممن سخروا انفسهم لخدمة الاغنياء ، اذ تنبه الرواد لخطرهم وقدرتهم على التأثير وترويج الافكار المخدرة التي تضفي على عملية الاستغلال والنهب شيئا من المشروعية ، فيكاد لا يبرأ قاص من التهكم بهم وبيان خطرهم ، مثلا فعل ذلك محمد تيمور في قصته «في القطار» ومحمود تيمور في «سيدنا» و«الشيخ نعيم» ، وطه حسين في «الايام» ومحمود طاهر لاشين في «حديث القرية» .

وهاجمت القصص الجهاز الاداري المسخر لخدمة الاغنياء وتحصيل الضرائب وتنفيذ السخرة ، فتكشف رواية «يوميات نائب في الارياف» عن فساد الجهاز الحكومي الذي يخلو من روح التعاطف والتفهم لظروف الفلاح ولا يفكر الا في نفسه ورغباته . وقصة «الشاويش بغدادي » (١٨) تصور رجل الشرطة الذي يرتعد حين يتخيل « حضرة الملاحظ او جناب المأمور» ، ثم يعوض ذلك عن طريق قسوته على الباعة والسائقين ...

ونال «العمدة» حظ كبير من هذا التهجم باعتباره الأداة المسخرة

---

(١) «فجر القصة» بقلم يحيى حقي ص ٨١ (القاهرة ـ المكتبة الثقافية ـ العدد ٦) .

(٢) انظر «فرعون الصغير» تأليف محمود تيمور ص ١٩٣ (القاهرة ـ دار العلم ـ الطبعة الثالثة) .

(٣) انظر «ابو علي عامل ارتيست» تأليف الدكتور محمود تيمور ص ٣٠ (القاهرة ـ المطبعة السلفية سنة ١٩٣٤) .

(٤) انظر «وحي الضمير» تأليف الدكتور سعيد عبده ص ١٠٤ (القاهرة ـ مطبعة جريدة الصباح سنة ١٩٢٣) .

(٥) انظر «الشيخ جمعة تأليف محمود تيمور ص ٣١ (القاهرة ـ المطبعة السلفية سنة ١٩٣٤) .

(٦) انظر «عم متولي» تأليف محمود تيمور ص ١٤ (القاهرة ـ المطبعة السلفية سنة ١٩٢٥) .

(٧) انظر «الاطلال» تأليف محمود تيمور ص ١٤٩ (القاهرة ـ المطبعة السلفية سنة ١٩٣٤) .

(٨) انظر «احسان هانم» تأليف عيسى عبيد ص ٥٨ (القاهرة ـ المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(٩) انظر صحيفة «الفجر» (١٠ يوليه ـ ١٩٢٥) .

(١٠) انظر صحيفة «الفجر» (١٧ ابريل ـ ١٩٢٥) .

(١١) انظر صحيفة «الفجر» (٨ مايو ـ ١٩٢٥) .

(١٢) انظر صحيفة «الفجر» (١٤ سبتمبر ـ ١٩٢٥) .

(١٣) انظر «ما تراه العيون» بقلم محمود تيمور ص ٢٣ (القاهرة ـ المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(١٤) انظر «الشيخ جمعة» ص ٤٧

(١٥) المرجع السابق ص ٦٩

(١٦) المرجع السابق ص ٨١

(١٧) انظر صحيفة «الفجر» (١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٥)

(١٨) انظر «يحكى ان» للاشين ص ٢٩ (القاهرة ـ المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

التي قاسى الفلاح منها الكثير ، او لانه «السبب في ده كله» (١) على حد تعبير احد الفلاحين .

وقد بدأ المويلحي من قبل فجلب العمدة الى المدينة وجعل يسخر منه في مواطن كثيرة ، من همجيته ومن جهله ومن غفلته وسذاجته ، وركز بنوع خاص على تذلله أمام رجال السلطة ، ينحني على الارض ويلتقط «فم السجار» لانه تذكار من حضرة مأمور المركز ، ويطأطىء على يد البرنس ويقبلها مرارا بطنا وظهرا ، وحين يرى وكيل المديرية داخلا الخان يصرخ في الخادم بصوت عال «علي بتفضيل الحساب وعين لي فيه ما شربه دولة البرنس وما اكله دولة البرنس وكم شرب اصحاب البرنس وكم شربنا مع البرنس وكم شرب قبلنا البرنس واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب وعد لادفع لك كل الثمن المطلوب (٢) .

ثم جاءت القصة ووضعت العمدة في مواقف واحداث لتكشف عن جهله وتعلقه برجال السلطة وقسوته على الفلاحين وظلمه للاهالي ، فمثلا قصة «في القطار» تقدم لنا العمدة بأوصاف خارجية تسخر منه فهو «رجل ضخم الجثة كبير الشارب أفطس الانف له وجه به آثار الجدري تظهر عليه مظاهر القوة والجهل . ويلتئم شمل الجماعة في القطار ، واذا ـ تلقائيا وبدافع المصلحة ـ يتآزر رجل الدين والعمدة مع الشركس في هجومه على الفلاح ، ويتآزر الثلاثة على خنق روح الثورة والتمرد عند الطالب الصغير . يقول له الاستاذ «واحسرتاه ، انكم من يوم ما تعلمتم السرطان فسدت عليكم اخلاقكم ونسيتم اوامر دينكم ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وانكر وجود الخالق» . ويقول الشركس «كان الولد يخاف ان يأكل مع ابيه واليوم يشتمه ويهم بصفعه» ويقول العمدة «كان الولد لا يرى وجه عمته والان يجالس امرأة اخيه » .

وتعرضت بعض القصص للحواجز والحدود التي تضعها الطبقية امام الاحرار ، فتحول بينهم وبين رغباتهم وتعزلهم عن الامتيازات التي تريد ان تستأثر بها لنفسها . لقد لخص «الوطواط» هذا الوضع بقوله «ان شبان الطبقة العالية الذين يسمون هنا بالارستقراط لا يتخطون عادة ان لم يكن مطلقا الى بنات الطبقة المتوسطة مهما كان مقدار تعليمهن وتهذيبهن» (٣) . وتحول الطبقية بين حامد وزينب في رواية الدكتور هيكل ، فهي فتاة ريفية عاملة وهو ابن سيد الضيعة ، وانتهى الامر بحل سلمي يتفق وهذه القوانين الاجتماعية ، فقد تزوجت زينب برجل من طبقتها لان النفس تطمح دائما الى شريك من طبقتها كما يقول هيكل (٤) .

وكثير من القصاص ينظرون الى هذا الوضع الطبقي وكأنه سنة الحياة لا سبيل الى تغييره ويرجعه هيكل (٥) الى قانون الازل منذ كانت حواء وآدم ومنذ ان كان النصف يبحث عن نصفه الاخر والماثل الذي انفصل عنه تحقيقا لارادة الالهة .

وقد حاول سامي في قصته «الاطلال ـ وهو من الطبقة الارستقراطية ـ ان يشذ عن هذه الاوضاع وان يندمج في طبقة المصريين المتوسطين وهو السيد التركي فدفعت «فتحية» المصرية ثمن هذه المحاولة عزلة في الريف ، وحاولت حواء من رواية «حواء بلا آدم» لمحمود طاهر لاشين ان تحطم هذه الحواجز ـ وهي من الطبقة المتوسطة ـ فدفعت الثمن ايضا من اعصابها . وحاول «شحاتة» ـ وهو كمساري من الطبقة العاملة ـ ان يتعلق بطبقة الارستقراط فاحب فتاة تظاهرت بانها بنت باشا واعتقد انها «الوحي الجديد اللى جايي يبرهن للناس ان الفقير والغني عند الله سيان وأنهم في ميدان الحب متساوون» ثم فوجيء بالحقيقة المرة «بنت باشا ايه ؟ هم بنات الباشا منتظرين صعاليك زيك يعشقوهم اهي ضحكت عليك وبس»(٦).

وقد ادت هذه الحواجز الصارخة الى انحرافات في سلوك الافراد ، فتحدثت اكثر من قصة عن تنكر الانسان لطبقته ، فما ان تتيح الصدفة لشخص ان يرقى الى طبقة اعلى عن طريق المال او العلم حتى ينفصل عن طبقته ويصير حربا شعواء عليها ، يخرج على عاداتها ولهجتها ولبسها وينكر اهله ويتبرأ منهم ، بدلا من ان يتعاطف معهم ـ وهو الخبير المكابد لشقائهم ـ ويرفع من مستواهم . وقد بلغ هذا المسلك حد الظاهرة التي لفتت نظر كثير من المصلحين ، منذ عبد الله النديم في مقاله «عربي تفرنج» والمويلحي الذي قال على لسان احد التجار يشكو ابنه «ما زال هذا الولد يزيد في تعذيبي وتكديري منذ خروجه من المدرسة ، فاصبح لا يكلم اهله الا بالرطانة ولا يعرب عن غرضه الا بالتعنيف والتانيب لا يرضى عن شيء في البيت ، فاذا جاءوا له بالماء قال فيه الميكروب ، واذا اتوه بالخبز او الجبن قال علي بالميكروسكوب .. حتى حير الخبيث اهل البيت في طعامه وشرابه فوق ما حيرني في اختلاف ملابسه وتعدد ازيائه ، وكلما عارضته بشيء شمخ بانفه استكبارا ولوى عنقه استحقارا وسخر بي لجهلي وفخر علي بعلمه » (٧) .

وفي قصة «خالة سلام باشا لمحمود تيمور يتنكر سلام باشا لاهله تماما وينسى خالته وهي البقية الباقية من اسرته ولا يذكرها الا في حالة موتها ليقيم السرادق الفخم ويدعو الكبراء ويجعل الصحف تتحدث عن جنازتها وتصف فخامة الاستقبال . ووالد محسن في «عودة الروح» وهو الفلاح الاصيل ينساق مع زوجته التركية في حملاتها العدائية على الفلاحين ويقول لمحسن وهو يشد جواربه الحريرية الغالية مؤمنا على كلام زوجة «فلاح تقولي ايه» والحاجب في «يوميات نائب في الارياف» يصف اهله من الفلاحين بانهم جامدوس ابيض .

ويصل التنكر احيانا الى حد رفض البيئة المصرية والتعلق بالبيئات الاجنبية الراقية ، وكثيرا ما كان يحدث هذا في الشباب الذين تتاح لهم فرصة السفر للخارج فتبهره الحضارة ويجعله الفارق الهائل يرفض واقع قومه ويحاول الاندماج في هذه البيئات الراقية. ومن ثم كثر الزواج من الاجنبيات ، ولم ينتج عن هذا الزواج «تغريب» الزوجة واندماجها في البيئة المصرية ، بل ادى الى «تغريب» الزوج وخسارة المجتمع لتجارب وذكاء هذه الطليعة المتقدمة. وقد شكل هذا الاتجاه ظاهرة جعلت الشيخ عبد العزيز جاويش يتخوف من الزواج بالكتابيات ويطالب بالعدول عنه ، فيقول تحت عنوان «الرابطة الاهلية» ... : «واذا كان الزواج بالكتابيات يفضي الى مفسدة في الجماعة او اخلال باحكام الدين وشعائره دخل في حدود المحظورات، فان مصر لا تتحرر بالهجين من ابنائها ولكن بالمصري الصحيح الذي لم تشبه شائبة اجنبية» (٨) . وجعلت الدكتور طه حسين يصف هذا الاتجاه بانه حرام ممقوت وان نتيجته «لا شيء الا ان يصبح الرجل

---

(١) انظر «عذراء دنشواي» لمحمود طاهر حقي ص ٤٥ (القاهرة ـ المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(٢) «حديث عيسى بن هشام» تأليف محمد المويلحي ص ١٩٤ (القاهرة ـ دار المعارف ـ الطبعة السابعة) .

(٣) «سخرية الناي» للاشين ص ٦٧ (القاهرة ـ المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(٤) انظر رواية «زينب» ص ٥٠ (القاهرة ـ مكتبة النهضة ١٩٦٣)

(٥) المرجع السابق .

(٦) «في ظلال الدموع» تأليف محمد شوكت التوني ص ٣٥ (القاهرة ـ مطبعة وهبه سنة ١٩٢٩) .

(٧) «حديث عيسى بن هشام» ص ١٢٩

(٨) انظر مجلة «الهداية» (مارس سنة ١٩١٠) ص ١١٣

وبيئته وابناؤه وبناته اوروبيين في كل شيء» (١) . ويوضح لاشين في قصة «الوطواط» (١٩٢٥) ويصل احيانا الى حد المباشرة ، خطورة هذا الاتجاه ، اذ يصاب النشء بالغربة وعدم الانتماء ويصير كالوطواط لا ينتسب الى الحيوانات ولا ينتمي الى الطيور .

ويحدث احيانا ان البيئات الاجنبية ترفض محاولة المصري في التعلق بها ، وتسخر من تكوينه وثقافته ولا تعبأ بعواطفه ومشاعره ، وتحاول ان تستغله ـ كغريب ـ بطريقة تخلو من الانسانية ، وتتخذه وسيلة لاغراض في نفسها ثم تلفظه حالما تنتهي المهمة ، فيحدث حينئذ رد فعل في نفس الشاب ـ وهو غالبا ما يكون مثقفا حساسا ـ فيرتد برومانسية الى بيئته الاصلية يدفن في حضنها آلامه واحباطه، ويحاول ان يرفض ـ بمبالغة ـ البيئة الاجنبية لينسى تجاربه المريرة معها . ان «محسن» في «عصفور من الشرق» تخدعه «سوزي» وتتظاهر بحبه لكي تتخذه وسيلة لاسترداد صديقها النافر «هنري» ، فيصاب بصدمة ويلجأ في احلامه الى السيدة زينب «حاميتي الطاهرة» كما يقول المؤلف في الاهداء ، فتلمس على قلبه وترفرف على جروحه ، ثم يتحاور مع عامل روسي ـ مصاب بداء السل ـ فينفث كل منهما عن نفسه ، ويريان ان اوروبا «فتاة شقراء جميلة رشيقة ذكية ولكنها خفيفة انانية لا يعنيها الا نفسها واستعباد غيرها» (٢) ـ تماما كصاحبته المتقلبة سوزي ـ وان كل الخير في الرجوع الى الشرق منبع الاديان الصافي . و«اديب» طه حسين وهو «ذكي النفس تام البصيرة» تهجره «الين» فيصاب بالاضطراب ويكتب في ازمته لصديقه «اليست مصر اولى بي وألست انا اولى بمصر ، ان في مصر حميدة وان في فرنسا الين ، وجوار حميدة على بغضها لي ، أهون عليّ من جوار الين، فان حميدة لم تؤلب عليّ ولم تكد لي وانما تلقت اساءتي اليها بالصبر والعفو ، اما الين فقد تلقت احساني اليها بالجحود والعقوق» (٣) .

وعقدة التظاهر انحراف كثيرا ما كان يحدث من الطبقة المتوسطة فتحاول التعلق باذيال وشكليات الطبقة العليا . ويبدو ان هذه العقدة كانت مسيطرة على الأسر السورية في مصر ، فقد عقد عيسى عبيد وشقيقه شحاتة ـ وهما من اصل سوري ـ اكثر من قصة تدور حول هذا الموضوع ، ففي قصة «انا لك» (٤) ارهقت الأم اسرتها لكي توفر لهم مظهرا يتيح لماري الحصول على عريس ثري ، و«ثريا» ـ في القصة المسماة باسمها ـ تتعلق بالمظاهرة وتتشدق باللغة الفرنسية لانها كانت تطمع باقتناص احد ابناء الأسر الغنية والتزوج منه» (٥) ، وعائلة زدوري في قصة «البائنة» (٦) يرهق نفسها من اجل الحصول على بائنة كبيرة لابنتهم .

واذا كان الحاجز الطبقي الصارم قد ادى الى هذه الانحرافات الايجابية ـ ان صح هذا التعبير ـ فقد ادى ـ من ناحية ثانية ـ بطائفة من المثقفين الى الانعزالية والهروب من مجتمعهم . فابراهيم الكاتب يبتعد عن واقعه ويهرب الى فلسفته المتشائمة ، وحسن في قصة «الرحيل» لمحمود البدوي يعرف في تصوفاته وتأملاته ، وقصة «في الظلام» للبدوي ايضا تقدم لنا فيلسوفا انعزاليا لا يريد ان يلقي بنفسه في خضم الحياة وهي تموج حوله «من كل شيء زوجين اثنين» .

وهذا يفسر لنا غلبة «التيار الذاتي» على قصص الرواد، فالقاص يلقي بظله على شخصياته وتحس بحضوره في تيار القصة ، فالدكتور هيكل يلقي بظلاله على شخصية حامد ، وطه حسين يطل علينا في «الايام» و«أديب» ، وتوفيق الحكيم نحس بملامحه النفسية من خلال «النائب في الارياف» ، ومحسن الصغير في «عودة الروح» ومحسن الشاب في «عصفور من الشرق» ، والعقاد يصور نفسه من خلال «همام» ـ في رواية سارة ـ شخصا معتدا بنفسه ومؤمنا بتفوقه على الاخرين ، والمازني لا يكتفي بان يحمل «ابراهيم الكاتب» بصماته بل يصر على ان يختار له اسمه ومهنته .

ولا عجب فقد كان القاص شديد الاحساس بنفسه وبضخامة دوره ، وهو يرى نفسه من قلة قليلة في بيئته تكثر فيها نسبة الأمية، فهو يصارع ظلاما محيطا به من كل جانب ويرود ارضا مبثوثة الالغام بملأها الجمود والتأخر والعصبية والقيود الاجتماعية والسياسية ، فازاء هذه المعوقات كان الكاتب يحس برسالته وبجهوده الفردية ، فالعظامية عند العقاد قرينة العصامية (٧) ، وهي التركيز على القدرات الذاتية ازاء المعوقات الخارجية آخذا من قول الشاعر (نفس عصام سودت عصاما ، وعلمته الكبر والاقداما) . ويركز طه حسين (٨) على خصال الصبر والمغالبة واحتمال المكره والتصميم على اقتحام العقبات كأسلحة تسلح بها في رحلة الحياة .

ومن هنا التقينا برواية فرد ولم نلتق برواية جماعة ، بمعنى ان البطولة الفردية هي السمة الغالبة ، انها رواية تحمل ظلالا «ملحمية» تركز على الفرد وتبرز دوره وتجعله ملتقى لكل الاحاسيس . اما البطولة الجماعية التي توزع الادوار على «فريق» يتقاسم النشاط والاهتمام فنكاد لا نجد لها صدى ، حتى رواية «عودة الروح» التي جعل توفيق الحكيم بطلها جماعة سماهم «الشعب» لم تسلم من تركيز الاضواء على «محسن» الصغير بين هذا الشعب ، فهو امل المؤلف من اول الرواية وهو الذي ـ على الرغم من صغره ـ يحس بتناقضات المجتمع وبفساد التركيب الطبقي وبالظلم الواقع على الفلاح . والاشادة بالروح الجماعي في هذه الرواية جاءت ـ على لسان فرنسي ـ وكأنها نظرية تقريرية او بحث تاريخي حول نفسية الشعب المصري .

ولهذا اتخذت رواية هذه الفترة ـ وهي التي تسمح بتعدد الشخصيات ـ نمطا معينا وشكلا تقليديا ، يتمثل في خط بياني يرسم كفاح بطل ، ويسير هذا الخط في حالة تصعيد (تازم) ، ثم يأخذ عند نقطة معينة في الهبوط (نهاية) . ولم نجد هذا الشكل الذي يتركب من خطوط متوازية ومتداخلة ومتقابلة ، بعيدا عن الحدة التنظيمية ومشاكلا للحياة في تعقد تراكيبها وتداخل علاقاتها .

والتركيز على حركة الشخصية والمبادرة الفردية الملحمية هو الذي جعل القاص يهمل «المكان» كشخصية تتفاعل مع الفرد اثرا

---

(١) انظر مجلة «الهداية» (مارس سنة ١٩١١) ص ١٨٧

(٢) «عصفور من الشرق» تأليف توفيق الحكيم ص ١٨٣ (القاهرة ـ مكتبة الاداب بالجماميز ـ د.ت) .

(٣) «اديب» للدكتور طه حسين ص ٢٤٩ (القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ـ د.ت) .

(٤) انظر «احسان هانم» ص ٩

(٥) «ثريا» تأليف عيسى عبيد ص ٣٧ (القاهرة ـ مطبعة رعمسيس بالفجالة سنة ١٩٢٢) .

(٦) انظر «درس مؤلم» تأليف شحاتة عبيد ص ٢١ (القاهرة ـ المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(٧) انظر «عصاميون عظماء» ص ١٩ (القاهرة ـ كتاب الهلال ـ العدد ٣٥) .

(٨) انظر «هذا مذهبي» ص ٤٠ (القاهرة ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٨) .

وتأثيرا ، فلم يتصور ان المكان بمعناه البيئي وبما يرتسب فيه من عادات وتقاليد ، يمكن ان يقاسم الشخصية البطولة وان يغيرها كما هي تحاول ان تغيره ، فاكتفى القاص في الحديث عن المكان ـ ان كان ـ بنثر صفات او تقديم تقرير ، كشيء كمالي يسعى به الى اضفاء «رتوش» خارجية . اننا نقرأ مثلا «جسر على نهر دربنا» او نقرأ «ثلاثية نجيب محفوظ» فنحس ان المكان هنا قد امتثل بيننا كشخصية متفاعلة تناوىء الفرد او يناوئها .

واذا كان الرواد لم يتعمقوا الجذور ، فقد كانت لهم طرقهم الخاصة والمحدودة لزلزلة هذا الكيان الاجتماعي ومحاولة التشكيك فيه . فلجأ بعضهم الى اسلوب «المقارنة» ، ووضع امام القارىء بطريقة قد تكون غير فنية نماذج من الطبقة المترفة في موازاة نماذج من الطبقة الفقيرة ، ويميل لاشين كثيرا الى هذا الاسلوب ، ففي قصة «سخرية الناي» يقدم لنا انسانا فقيرا قد دفعته فلسفته في الحياة الى الرضا والقناعة ويضع في موازاته شابا غنيا يعيش في شقاء بسبب المرض ، وفي قصة «يحكى ان» يقيم زواجا بين «مبروك افندي درويش» الموظف الفلبان وبين «نعمات هانم» الثرية المدللة ، بل نحس انه يتعمد المقارنة حتى في صوره الجزئية وانه يريد بهذه المقارنة ان يوجه النظر الى الفروق الهائلة ، فهو يقول عن منزل «الباشا» وبعد ان وصف منزل «حواء» .. «وبيت الباشا لا يبتعد كثيرا عن بيت حواء جغرافيا اما فيما عدا ذلك فالسماء والارض والشرق والغرب ، حديقة واسعة منسقة اجمل تنسيق وممر من زلط ذي الوان تتكون فيه رسوم غاية في الابداع» (١) .

وهناك من اتخذ وسيلة حالة لتخطي الحواجز بين الطبقات ، فاذا كان الواقع بهذه الحواجز الصارمة فلا اقل من ان يلجأ الى الخيال فيتخذ الحب وسيلة للجمع بين الضدين «ان جمهور القراء يطلب قصة عن اميرة جميلة غنية تقع في ورطة فينجيها من الموت شاب جميل فقير شجاع فيتزوجها» (٢) .

فعالم الحب لا يعترف بالفروق وتتكسر فيه الطبقية ولا يخضع للمواصفات الاجتماعية لانه حديث الفطرة والانسانية ، فالفتاة الغنية في قصة «ربي لمن خلقت هذا النعيم» (٣) والتي تسكن في قصر يطل على النيل ، تحب شابا يسكن في الحمزاوي ، ويخضع الأب في ليلة مقمرة صافية لهذه العواطف فيرجع عن عناده وبذلك ينتصر الحب على الحواجز الاجتماعية . ان «احمد عليوي» يتعلق «بزهيرة» لكي يكسر الحاجز الطبقي وينتصر عليه بوسيلة ما «ليس من الانتصار لتلك الناحية الاشتراكية في روح كل شاب فقير مثلي ان ينشىء علاقة غرامية مع امرأة كزهيرة سليلة بيت كبير» (٤) .

ولكن كثيرا من القصص سخر من هذه الوسيلة الحالمة التي لا تلبث ان تتكسر فوق صخرة الواقع ، وتمنع الجمع بين الضدين (قصة زينب) وتصيب الشخص الحالم بالهزيمة (قصة شحاتة الكمساري) والانهيار العصبي (قصة حواء بلا آدم) .

تهكم الرواد ـ اذن ـ من النماذج المترفة والطبقات الحاكمة والفئات الدخيلة وحملوا على ادواتها الادارية في تنفيذ المخطط ، وهاجموا الانحرافات السلوكية والخلقية . وكل هذا ـ مع اعتبارات اخرى ـ قربنا خطوات من «الشخصية المصرية» الاصيلة ، موضوع الدراسة القادمة .

القاهرة (للبحث بقية)

عبد الحميد ابراهيم

---

(١) «حواء بلا آدم» للاشين ص ٦٥ (القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ـ د.ت) .

(٢) «في وادي الهموم» لمحمد لطفي جمعة ص ٤ «المقدمة» (القاهرة ـ مطبعة النيل سنة ١٩٠٥) .

(٣) انظر «ما تراه العيون» ص ٥٣

(٤) «حياة الظلام» لمحمود كامل ص ٨١ (القاهرة ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٤٠) .

كارل ماركس

تاليف

روجيه غارودي

ترجمة : جورج طرابيشي

« يستقطب ماركس وتراثه اليوم مشاعر الامل والغضب عند الناس اجمعين ، ويمثل فكره ، بحب او بسخط ، سؤالا ووعدا وكفاحا بالنسبة الى البشر جميعا والطبقات كافة والامم قاطبة .

ذلك ان هدف هذه الفلسفة هو تغيير العالم ، وليس فقط تغيير الفكرة التي نملكها عنه ... فقد ازاح ماركس النقاب عن الفلسفة بوصفها تعبيرا عن عمل البشر وصراعاتهم ، ونزع ايضا قناع الفلسفات التي كانت تزعم انها تحلق فوق هذا العمل وهذه الصراعات ، وكشف الممارسات والسياسات التي انيطت بتلك الفلسفات مهمة تبريرها او تمويهها .

لقد اصبح فكر ماركس الوعي الفاعل لعصر باكمله . فهو يعلمنا كيف نستخلص قانون التطور التاريخي لعصرنا ، ويساعد كلا منا على ان يعي معنى حياته ومعنى المستقبل الذي يحمله في طوايا نفسه ، ومعنى مسؤوليته تجاه هذا المستقبل .

ان فكر ماركس يبدو اليوم ، بالنسبة الى انصاره واعدائه على حدّ سواء خميرة الاختمارات الانسانية قاطبة في القارات الخمس . فهو يستدعي لدى بعضهم مشاعر الحقد واللعنة ، والاضطهاد والمحارق البشرية على نطاق لم يعرفه التاريخ قط ، ويثير لدى الجماهير الغفيرة التي وجدت فيه منفذا للنجاة ومعقدا للرجاء اندفاعة معجزة نحو البطولة والتضحية .

وما اخذه هذا الكتاب على عاتقه هو محاولة تفسير تلك الواقعة الهائلة » .

صدر حديثا الثمن : ٥٥٠ ق.ل.